المحاضرة السّابعة :

النقـــــد الثّقـــــافي

تمهيـد:

يُعدّ النّقد الثّقافي من أحدث التّوجّهات النّقدية والمعرفية التي عرفها العالم الغربي مع نهايات القرن الماضي، وقد استقبل النّقد العربي هذ النّشاط الجديد مع بدايات القرن الحالي، من خلال مجموعة من المطارحات النّقدية سيما ما تعلّق منها بالنّاقد السّعودي عبد الله الغذّامي في كتابه النّقد الثّقافي، قراءة في الأنساق الثّقافية العربية الصّادر عام 2000م.

لهذا نسعى –من خلال هذه المحاضرة–إلى تسليط الضّوء على أبرز محطّات النّقد الثّقافي وتطوّره في الوطن العربي، وما صاحبه من غموض لدى دعاته ورواده حول مفهومه والاضطراب في دلالاته وإجراءاته ممّا أثار في ذهن المتلقّي العربي عدّة تساؤلات حول هذا المصطلح.

1–مفهوم النّقد الثّقافي:

يُعدّ **تيودور أدورنو** أول من بلور مفهوم النّقد الثّقافي، وهو أحد الأعضاء المؤسّسين لمدرسة فرانكفورت، والذي كان منشغلاً مع زملائه بتحليل صناعة الثّقافة فشنّوا هجومًا كاسحا ضدّ ما يُسمّى الآن بالثّقافة الجماهيرية التي تتواطأ مع الثّقافة الرّسمية ضدّ مفهوم النّقد ذاته وفي كتابه مشاورات الصّادر عام 1951م يأتي الفصل السّابع بعنوان النّقد الثّقافي والمجتمع، وفيه يطرح أدورنو أنّ النّقد الثقافي مفهوم برجوازي أنتجه المجتمع الاستهلاكي ولا بد أن نعني حقيقته بوصفه كذلك،

فهو يحوّل الثّقافة إلى سلعة ويخضعها لدوائر التّشيّؤ والتّسليع والاستهلاك، وفي ختام هذا المقال يطلق عبارته الشّهيرة حول الشّعر فيقول: إنّ كتابة الشّعر بعد أوشفيتز عمل بربري.

إنّ النّقد الثّقافي كمذهب فكري يشهد ثراء معرفيا هائلا لأنهّ يقوم على فكرة الثّقافة التي تقوم بوظيفة مهمّة في التّطوّرات الاجتماعية والسّياسية، وكذلك في تطوّر وتنمية هوية الفرد، وهذه الهوية تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن ثمّ فإنّ النّقد الثّقافي سيكون صالحا للممارسة على نصوص متعدّدة، فهو مجال نقدي يستعين بأدوات إجرائية متنوّعة المصادر وما يميّز هذا النّقد سعيه الدّائم إلى تعديل الإجراءات النّقدية تعديلا ثقافيا.

-النّقد الثّقافي عند العرب وأشهر رواده:

المشكل في نقدنا العربي المعاصر، أنّ كثيرا من نقّادنا العرب، وقعوا أسرَ النّقد الغربي منذ عقود، وهو أسر لم يُتح لهم أن يهضموا نظرياته الحقيقية التي تسهم في بناء نظريّة نقدية عربية، تتوافق وطبيعةَ اللّغة العربية وخصائصها ومميّزاتها، ولعلّ هذا ما جعل النّقد العربي الرّاهن يدور في حلقة مفرغة من القراءات غير المجدية.

لقد حاول بعض الباحثين العرب التّطبيق على بعض النصوص الأدبية العربية من خلال النّقد الثّقافي أو التّحليل الثّقافي، وللأسف فقد كانت النّتائج التي توصّلوا إليها أقرب إلى المبالغات والافتعال، وقد سبقت الاشارة إلى بعض نتائج ودراسات الغذّامي في بعض النّصوص القديمة والحديثة

في أدبنا العربي، فقد وصل مثلا إلى أنّ أبا تمّام والمتنبي فحلان سامقان، ولم نر ما أحدثاه في أنساقنا الثّقافية من عيوب خطيرة هما وغيرهما، من مثل نزّار قباني، وأدونيس...

يُعدّ النّاقد والدّكتور السّعودي محمّد عبد الله الغذّامي، وهو أستاذ النّقد والنّظرية في جامعة الملك آل سعود بالرّياض، من أهمّ النّقاد الذين تبنّوا هذا المنهج، وقد انطلقت فكرة مشروع النّقد الثّقافي عنده من خلال مجموعة من المناقشات واللّقاءات بمجموعة من المدن العربية منذ أواخر سنوات التّسعين، وتُعدّ الثّقافة العربية الموضوع الأساسي لكتاب النّقد الثّقافي، حيث حاول من خلاله الغذّامي مقاربتها وفق ميكانيزمات المنهج الثّقافي من خلال ما يتعلّق بأداب البادية، والشّعر النّبطي، والأدبيات الشّعرية...

لقد طرح الغذّامي فكرة النّقد الثّقافي طرحًا جدّيا، كما أصّل لهذا المنهج نظريا ومعرفيا وممارسة تضاف إلى ممارساته النّقدية الباهرة، وقد وسّع البلاغة العربية القديمة، ليتّخذ من التّورية مفهومًا إجرائيا جديدا، بغية تطبيقه على النّصوص في ضوء المقاربة الثّقافية.

-النّسق المضمر: يعتمدّ النّقد الثّقافي على مصطلح النّسق المضمر، وهو نسق مركزي في إطار المقاربة الثّقافية، باعتبار أنّ كلّ ثقافة مخصوصة تحمل في طياتها أنساقا مهيمنة، فالنّسق الجمالي والبلاغي في الأدب يخفي أنساقًا ثقافية مضمرة، ويقول الغذّامي في هذ الصّدد أنّ في الخطاب الأدبي عامّة والشّعري خاصّة، قيمًا نسقية مضمرة، تتسبّب في التّأسيس لنسق ثقافي مهيمن ظلّت الثّقافة العربية تعاني منه على مدًى مازال قائما، ظلّ هذا النّسق غير منقود ولامكشوف بسبب توسّله

يالجمالي الأدبي، وبسبب عمى النّقد الأدبي عن مسائلته، وهذا يعني أنّ هناك نسقا ظاهرا يقول شيئا، ونسقًا مضمرا غير واع وغير معلن يقول شيئا آخر، وهذا المضمر هو الذي يسمّى: النّسق الثّقافي، وغالبا ما يتحقّق النّسق الثّقافي وراء النّسق الجمالي، والأدبي، ومن ثمّ؛ فالمقاربة الثّقافية لايهمّها في النّص تلك الأدبية الجمالية والفنّية والمضامين المباشرة، بقدر ما يهمّها مكاشفة الأنساق الثقافية المضمرة.

-المؤلّف المزدوج: وهو الكاتب الجمالي والأدبي الذي ينتج أنساقا أدبية وجمالية فنّية ظاهرة ومباشرة أو غير مباشرة، وذلك عن طريق الرّمزية والإيحائية، وهناك في المقابل المبدع الثّقافي الذي يتمثّل في الثّقافة نفسها التي تتوارى وراء الظّاهر في شكل أنساق مضمرة غير واعية، ويعني هذا أنّ هناك فاعلين رئيسيين: المبدع الفردي أو مايُسمّى أيضا: المبدعَ الأدبي والجمالي والفنّي، والفاعل الثّقافي الذي يتمثّل بالسّياق الثّقافي. وثمّة مفاهيم أخرى لم يشر إليها عبد الله الغذّامي، مثل: السّياتق الثّقافي، والمقصدية الثّقافية والتّأويل الثّقافي...

إدوارد سعيد: مفكّر وناقد ومنظّر ذو أصول فلسطينية (1935م-2003م)، ويُعتبر كتابه (الاستشراق)أحد نتائج هذه المنهجية الدّراسية الجديدة، فانطلاقا من تصوّرات الاستعمار والاستعمار الجديد اللذين هيمنا على جزء كبير من أقاليم الكرة الأرضية، انكبّ إدوارد سعيد على دراسة انعكاسات تلك التّصوّرات الاستعمارية في الأفكار السّياسية الغربية، والأبحاث التّاريخية، وأبحاث الآثار، وامتدّ تحليله إلى رحلات الاستكشاف والأدب الرّوائي والمسرحي، والفلسفة، وصولا إلى الثّقافة الشّعبية.

محمد عابد الجبري: له دراسات تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثّقافة العربية سنة1985م

جابر عصفور: وذلك من خلال تناوله الكثيرَ من القضايا النّقدية التي تنشر هريا في مجلّة العربي الكويتية.

إدريس الخضراوي: وذلك من خلال كتابه (الأدب موضوعا للدّراسات الثّقافية)، الذي يحاول الاقتراب من مجموعة من القضايا الشّائكة التي تتناسل أسئلتها المتعدّدة حول النّقد ومفهومة، وما أنتجه ذلك من جدل في تاريخ المعرفة الأدبية، وغير هؤلاء من الرّواد كثير، وهذا الأمر يشي بالوعي الكبير للمسألة الثّقافية، بالإضافة إلى ما تتناوله من محاور تتشاكل مع الثّقافة العربية.

الواقع إنّ خطوات **الغذّامي** النّقدية وغيره أخرجت النّص من دائرة القراءات الضّيقة المرتبطة أساسا بما هو أدبي إلى قراءة في شموليتها ومن منطلقات ثقافية، والثّقافة أشمل من الأدب، وهي لا تخصّ الأدب وحده، وإنّما تغطّي مساحاتٍ شاسعة من الإنتاج البشري، فالنّقد الثّقافي نقد تفجيري يتمدّد في النّص حاضنا كلّ الأشكال الثّقافية التي أنتجته.